الاستطاعة وعصرية الدعوة
الاستطاعة والتحفيز الذاتي في خدمة الدعوة
ندوة الحج الكبرى / ذي الحجة 1429هـ الموافق ديسمبر 2008م
الدكتور المهندس خالد فائق صديق العبيدي

مقدمة

إن ما تقوم به المملكة أدام الله عزها في تسهيل أمور الحجيج كل عام وما يتم بذله من جهود فكرية وعلمية وتنفيذية ومالية كي تكون المشاعر المقدسة يسيرة قدر الإمكان لهو بحق فضل من الله تعالى أن منّ على الأمة بأناس راشدين فاعلين في خدمة المسلمين لتأدية مناسك الحج والعمرة بكل مشاعرها فضلاً عن خدمتهم في مجال الدعوة والعلم والفكر والدعم المالدي والمعنوي في كافة الصعد قدر المستطاع في ظل م منظومات وتفاعلات العالم المعقدة اليوم.

ومبحثنا هنا يتعلق بجدلية ثلاثية الأطراف تتعلق بمنظومة الحج محورها الرئيس الاستطاعة والتيسير لأداء المناسك، وأطرف مثلثها المناسك والمشاعر- الحجيج- القائمين على الحج من جهة، ومن جهة ثانية هل أن جهود تلك الأطراف وبالتحديد طرفي الحجيج والقائمين على خدمتهم ورعايتهم تصب في مشروع الدعوة العصرية لهذا الدين في عصر معقد مضطرب الحركة متلجلج التيارات والأفكار من جهة ثانية؟!

عصرية الدعوة هي ذلك النمط الدعوي الذي يتناسب مع العصر الراهن بكل تعقيداته واضطراباته وفتنه التسونامية العاصفة، وهي أسلوب يتبناه الباحث بما يراه مناسباً للتسريع في كسب نسبة أكبر من العالم لهذا الدين وتسريع التعجيل الذاتي للأمة في سلم صعودها ورقيها ونهضتها لتسنم مكانها القيادي بين الأمم كما تستحق. وهذه الدعوة العصرية تمت هندستها على ركيزتين اثنتين العلم والإعلام، وكل ركيزة لها تفاصيلها ومحاورها وتطبيقاتها ومشاريعها.

وبالنظر لتلك التركيبة الثلاثية التي تشكل منظومة الحج نجد أن أطرافها جميعاً مرتبطة ارتباطاً عضوياً على مدار الزمن لكن طرفين منهما مرتبطان ارتباطاً موقعياً حركياً هما القائمين على الحج والمواقع والآثار المرتبطة بالمناسك والمشاعر أمكنة وأمناً وقوامة، لأن هذين الطرفين يربطهما رابط عروي وثيق متمثل بتوفير الأمن والسكينة وأمكنة المبيت والطعام والشراب والعلماء والخدام والوسائط الناقلة وغير ذلك بينما يكون المغزى من هذين الطرفين هو خدمة الحاج وتسهيل حجه وصولاً للحج المبرور الذي يؤدي إلى مرضاة الله والجنة كما هو مثبت في السنة الصحيحة. فكأن طرفي المثلث اللذان يشكلان قاعدته يقومان

في خدمة الطرف الثالث الذي يشكل قمة المثلث أو هدفه الأسمى الذي هو الحاج تحقيقاً لمبدأ الاستطاعة التي تفضي للقبول وتحقيق ما يصبو له الحاج من رحلته المباركة.

المبحث يناقش هذه المسألة ويبين هل أن طرفي الأداء الحركي والتنفيذي مع ما ينجز في أرض المشاعر في موسم الحج خصوصاً في هذه الفترة يمكن توظيفها في سبيل تبيان عظمة هذا الدين بشكل حضاري يفهمه الجميع المسلم وغير المسلم من جميع التوجهات الفكرية ويؤدي إلى تحفيز الناس ذاتياً للدخول في هذا الدين أفواجاً؟

آيات الاستطاعة

أولاً: استطعت (3 آيات)

1. (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (الأنعام:35)
2. (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود:88)
3. (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً) (الاسراء:64).

ثانياً: اسطاعوا واستطاعوا (4 آيات)

1. (يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة:217)
2. (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً) (الكهف:97)
3. (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلا يَرْجِعُونَ) (يّـــس:67)
4. (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ) (الذريات:45).

ثالثاً: استطعتم (5 آيات)

1. (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) (لأنفال:60)
2. (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (يونس:38)
3. (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (هود:13)
4. (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (الرحمن:33)
5. (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (التغابن:16)

رابعاً: يستطع (آيتان جاءتا بصيغة النفي : أي أن حالتيهما خاصة تبعيضية منحصرة بالقدرة المادية تحديداً)

1. (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النساء:25).. استطاعة الدفع لمهر الحرة.
2. (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (المجادلة:4).. استطاعة الدفع لإطعام المساكين.

خامساً: استطاع <u>(آية واحدة هي آية الحج وهي أعم الخطاب)</u>

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران: من الآية97).. الآية الوحيدة في هذا المقام. والكفر المقصود بالآية الكريمة قيل كفر النعمة وقيل كفر بما جاء به الشرع وقيل كفر بالله تعالى مترتب على الكفر بأوامره وقيل غير ذلك. والأمر بالحج أما على وجه التعجيل أو على وجه التراخي على اختلاف الأقوال كما هو معروف.

سبب النزول

قوله تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)(آل عمران: من الآية97). جاء عن عكرمة قال : لما نزلت : { ومن يبتغ غير الإسلام دينا } إلى آخر الآية قالت اليهود : فنحن مسلمون ! قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل لهم أن : { ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر } من أهل الملل { فإن الله غني عن العالمين } [آل عمران : 97](1).

معاني اللغة

يقول أهل العلم:

الطوع : الانقياد ويضاده الكره قال عز وجل : { ائتيا طوعا أو كرها } [فصلت / 11] { وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها } [آل عمران / 83] والطاعة مثله لكن أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر والارتسام فيما رسم . قال تعالى : { ويقولون طاعة } [النساء / 81 } [طاعة وقول معروف } [محمد / 21] أي : أطيعوا وقد طاع له يطوع وأطاعه يطيعه (راجع : الأفعال 3 / 249 ، 3 / 283). قال تعالى : { وأطيعوا الرسول } [التغابن / 12] { من يطع الرسول فقد أطاع الله } [النساء / 80] { ولا تطع الكافرين } [الأحزاب / 48]. وقوله في صفة جبريل عليه السلام : { مطاع ثم أمين } [التكوير / 21] والتطوع في الأصل : تكلف الطاعة وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم كالتنقل قال : { فمن تطوع خيرا فهو خير له } [البقرة / 184] وقرئ : (ومن يطوع خيرا) (وهي قراءة شاذة) (2). قال تعالى : { ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم } [البقرة / 158] { الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين } [التوبة / 79] وقيل : طاعت وتطوعت بمعنى(3).

والاستطاعة : استفعالة من الطوع وذلك وجود ما يصير به الفعل متأتيا وهي عند المحققين اسم للمعاني التي بها يتمكن الإنسان مما يريده من إحداث الفعل(4). والاستِطاعَةُ : القُدرَةُ على الشَّيءِ وقيل : هي اسْتِفعالٌ من الطَّاعَةِ. وفي البصائر للمصَنِّفِ : الاستطاعَةُ أَصله الاستِطْواعُ فلمّا أُسْقِطَتْ الواوُ جُعِلَت الهاءُ بدلاً عنها . وقال الرَّاغِبُ : الاستطاعَةُ عندَ المُحَقِّقينَ : اسمٌ للمعاني التي بها يَتَمَكَّنُ الإنسانُ مِمّا يُريدُه من

---

(1) تفسير الطبري [جزء 3 - صفحة 337]

(2) مفردات القرآن [جزء 1 - صفحة 924].

(3) مفردات القرآن [جزء 1 - صفحة 924].

(4) مفردات القرآن [جزء 1 - صفحة 924].

إحداثِ الفعلِ وهي أَربعَةُ أَشياءَ : بِنْيَةٌ مَخصوصَةٌ للفاعِلِ وتَصَوُّرٌ للفِعْلِ ومادَّةٌ قابلَةٌ لتأْثيرِهِ وآلَةٌ إنْ كانَ الفِعْلُ آلِيّاً كالكِتابَةِ فإنَّ الكاتبَ يحتاجُ إلى هذه الأَربعَةِ في إيجادِه للكِتابَةِ ولذلكَ يُقال : فلانٌ غيرُ مُستَطيعٍ للكتابَةِ : إذا فقدَ واحِداً من هذه الأَربَعَةِ فصاعِداً ويُضادُّهُ العَجْزُ وهو أَن لا يَجدَ أَحَدَ هذه الأَربعةِ فصاعِداً ومَتى وَجَدَ هذه الأَربعةَ كلَّها فمُستطيعٌ مُطلَقاً ومتى فقدَها فعاجِزٌ مُطلَقاً ومتى وجَدَ بعضَها دونَ بعضٍ فمُستَطيعٌ من وَجهٍ عاجِزٌ من وَجهٍ ولأَنْ يُوصَفَ بالعجزِ أَولَى (5).

ويقال : استطاع واسطاع بمعنى قال تعالى : { فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا } [الكهف / 97](6). قال الأَخفَشُ: إنَّ بعضَ العرَبِ يقول : اسْتاعَ يَسْتِيعُ فيَحذِفُ الطَّاءَ اسْتِثْقالاً وهو يريد استطاع يستطيعُ . قال الزَّجّاجُ : ولا يَجوزُ في القراءَةِ قال الأَخفَشُ : وبعضُ العرب يقول : أَسْطاعَ يُسْطِيعُ بقطْعِ الهَمزةِ بمعنى أَطاعَ يُطيعُ ويجعَلُ السينَ عِوَضاً من ذَهابِ حركَةِ عينِ الفِعلِ . وفي التَّهذيب : قل ذلكَ الخليلُ وسيبويه عِوَضاً من ذَهابِ حركَةِ الواوِ لأَنَّ الأَصْلَ في أَطاعَ أَطْوَعَ ومن كانت هذه لغتَه قال في المُستقبَلِ يُسْطِيعُ بضَمِّ الياءِ . قال الزَّجّاجُ : ومن قال : أَطْرَحُ حركَةَ التّاءِ على السّينِ فأَقرأُ : فما أَسَطاعوا فخَطأٌ أَيضاً لأَنَّ سين اسْتَفْعَلَ لم تُحَرَّكْ قَطُّ . وفي المُحكَمِ : واسْتَطاعَهُ واسْطاعَهُ وأَسْطاعَهُ واسْتاعَهُ وأَسْتاعَهُ : أَطاقَهُ فاسْتَطاعَ على قياسِ التَّصريفِ وأَمّا اسْطاعَ مَوصولَةً فعلى حَذْفِ التَّاءِ لِمُقارَنَتِها الطَّاءَ في المَخرَجِ فاسْتُخِفَّ بحَذْفِها كما اسْتُخِفَّ بحذفِ أَحَدِ اللامينِ في ظَلْت . وأَمّا أَسْطاعَ مَقطوعَةً فعلى أَنَّهم أَنابوا السينَ منابَ حركَةِ العَينِ في أَطاعَ التي أَصلُها أَطْوَعَ وهي مع ذلكَ زائدَةٌ . ويقال : تَطاوَعَ لهذا الأَمرِ حتّى يستطيعَهُ أَي تكلَّفَ استِطاعَتَه كما في الصحاحِ قال الصَّاغانِيُّ : وهو معنى قولِ عَمرو بنِ مَعْدِيكَرِبَ رضي الله عنه:

إذا لَمْ تَستَطِعْ أَمراً فدَعْهُ ... وجاوِزْهُ إلى ما تَستَطيعُ (7).

والاستِطاعَةُ أَخَصُّ من القُدْرَةِ وقوله تعالى : " ولِلَّه على النّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إليهِ سَبيلاً " فإنَّه يحتاجُ إلى هذه الأَربعة وقولُه صلّى الله عليه وسلّم : " الاستِطاعَةُ الزَّادُ والرَّاحِلَةُ "(8) فإنَّه بيانٌ لِما يُحتاجُ إليه من الآلَةِ وخصَّه بالذِّكْرِ دونَ الآخر إذْ كانَ مَعلوماً من حيثُ العقلُ مُقتَضى الشَّرعِ أَنَّ التَّكليفَ من

---

(5) تاج العروس [جزء 1 - صفحة 5428].

(6) مفردات القرآن [جزء 1 - صفحة 924].

(7) تاج العروس [جزء 1 - صفحة 5428-5430].

(8) أخرج الدارقطني والحاكم وصححه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله : { من استطاع إليه سبيلا } فقيل : ما السبيل ؟ قال : (الزاد والراحلة } . انظر : الدر المنثور 2 / 273 ، وسنن الدارقطني 2 / 216 قال إسحق : وطرقه كلها ضعيفة . انظر المستدرك 1 / 442. وأخرجه الترمذي عن ابن عمر ثم قال : هذا حديث حسن والعمل عليه عند أهل العلم وضعفه ابن العربي، انظر : عارضة الأحوذي 4 / 28 . انظر مفردات القرآن [جزء 1 - صفحة 924]

دونِ تلكَ الأُخَرِ لا يَصِحُّ . وقولُه تعالى : " لَو اسْتَطَعْنا لَخرَجْنا معَكُمْ " فالإشارَةُ بالاستطاعَةِ ههنا إلى عدَمِ الآلَةِ من المالِ والظَّهْرِ ونحوِه وكذا قوله عزَّ وجَلَّ : " ومَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ المُحصَناتِ " وقد يُقال : فلانٌ لا يستطيعُ كذا لِما يَصعُبُ عليه فعلُه لِعدَمِ الرِّياضَةِ وذلكَ يرجعُ إلى افتِقادِ الآلَةِ وعدَمِ التَّصَوُّرِ وقد يَصِحُّ معه التَّكليفُ ولا يَصيرُ الإنسانُ به مَعذوراً وعلى هذا الوجه قال الله تعالى : " إنَّكَ لن تَستَطيعَ معِيَ صَبراً " وقولُه عزَّ وجَلَّ : " هلْ يَستَطيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنزِّلَ علينا مائدةً من السَّماءِ " فقد قيل : إنَّهم قالوا ذلكَ قبلَ أَنْ قَوِيَتْ مَعرِفَتُهُم بالله عزّ وجلَّ(9). وقيل : إنهم لم يقصدوا قصد القدرة (قالت عائشة : كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا : هل يستطيع ربك إنما قالوا : هل تستطيع أنت ربك هل تستطيع أن تدعوه ؟ انظر : الدر المنثور 3 / 231) وإنما قصدوا أنه هل تقتضي الحكمة أن يفعل ذلك ؟ وقيل : يستطيع ويطيع بمعنى واحد (وهذا قول الشعبي . انظر : الدر المنثور 3 / 231) ومعناه : هل يجيب ؟ كقوله : { ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع } [غافر / 18] أي : يجاب وقرئ : { هل تستطيع ربك } (وبها قرأ الكسائي . انظر : الإتحاف ص 204) أي : سؤال ربك كقولك هل يستطيع الأمير أن يفعل كذا وقوله : { فطوعت له نفسه } [المائدة / 30] نحو : أسمحت له قرينته وانقادت له وسولت وطوعت أبلغ من أطاعت وطوعت له نفسه بإزاء قولهم : تأبت عن كذا نفسه وتطوع كذا : تحمله طوعا(10). وقيل : يستطيعُ ويُطِيعُ بمَعنىً واحِدٍ ومَعناهُ : هلَ يُجيبُ. وقرأَ الكِسائيُّ : " هلْ تَستَطيعُ رَبَّكَ " بالتّاءِ ونَصب الباءِ أَي هل تَستدعي إجابَتَه في أَنْ يُنَزِّلَ علينا مائدةً من السَّماءِ . وفي الصِّحاح : ورُبَّما قالوا : اسْطاعَ يَسْطِيعُ ويَحذِفونَ التّاءَ اسْتِثقالاً لها مع الطّاءِ ويكرهونَ إدغامَ التّاءِ فيها فتُحَرَّكُ السِّينُ وهي لا تُحَرَّكُ أبداً . وقرأَ حمزةُ كما في الصحاح وهو الزَّيّاتُ زاد الصَّاغانيُّ : غيْر خَلاّدٍ : فما اسْطاعوا بالإدغام فجَمَعَ بينَ السّاكِنين قال الأَزْهَرِيّ : قال الزَّجّاجُ : مَن قرأَ هذه القراءَةَ فهو لاحِنٌ مُخطِئٌ زعَمَ ذلكَ الخليلُ ويونُسُ وسيبويهِ وجَميعُ مَن يَقولُ بقولِهِم وحُجَّتُهُم في ذلكَ أَنَّ السِّينَ ساكِنَةٌ وإذا أُدغِمَتِ التّاءُ في الطّاءِ صارَت طاءً ساكِنَةً ولا يُجمَعُ بينَ ساكِنَين (11).

وفي التنزيل العزيز ومَنْ لم يَسْتَطِعْ منكم طَوْلاً (الآية) قال الزجاج معناه من لم يقدر منكم على مَهْرِ الحُرَّة قال والطَّوْلُ القدرة على المَهْر وقوله عز وجل ذي الطَّوْل لا إِله إِلا هو أَي ذي القُدْرة وقيل الطَّوْل الغِنى والطَّوْلُ الفَضْل يقال لفلان على فلان طَوْلٌ أَي فَضْلٌ ويقال إِنه لَيَتَطَوَّل على الناس بفضله وخيره والطَّوْل بالفتح المَنُّ يقال منه طالَ عليه وتَطوَّلَ عليه إِذا امْتَنَّ عليه وفي الحديث اللهمَّ بك أُحاوِل وبك

(9) تاج العروس [جزء 1 - صفحة 5428].

(10) مفردات القرآن [جزء 1 - صفحة 924].

(11) تاج العروس [جزء 1 - صفحة 5429].

أُطاوِل مُفاعَلة من الطَّوْل بالفتح وهو الفَضْلُ والعُلُوُّ على الأَعداء ومنه الحديث تَطَاوَلَ عليهم الرَّبُّ بفضله أَي تَطَوَّل(12). وقولُهُ تَعالَى : " ومَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً " قالَ الزَّجَّاجُ : مَعْنَاهُ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ مِنْكُمْ عَلى مَهْرِ الحُرَّةِ قال : والطَّوْلُ : القُدْرَةُ عَلى المَهْرِ . وقال الرَّاغِبُ : هوَ كِنَايَةٌ عَمَّا يُصْرَفُ إلى المَهْرِ والنَّفَقَةِ . وقَولهُ تَعالَى : " ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ " أي ذِي القُدْرَةِ وقيلَ : ذِي الفَضْلِ والمَنِّ (13).

التفسير

وقوله تعالى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين } حكم أعقب به الامتنان : لما في هذا الحكم من التنويه بشأن البيت فلذلك حسن عطفه . والتقدير : مباركا وهدى وواجبا حجه . فهو عطف على الأحوال (14).

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله عز وجل : { من استطاع إليه سبيلا } وما السبيل التي يجب مع استطاعتها فرض الحج ؟، فقال بعضهم : هي الزاد والراحلة. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : { من استطاع إليه سبيلا } قال : الزاد والراحلة، وعن ابن عباس في قوله : { من استطاع إليه سبيلا } قال : الزاد والبعير. وعن ابن عباس أيضاً قوله : { ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا } والسبيل أن يصح بدن العبد ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به(15). وأخرج الدارقطني والحاكم وصححه عن أنس " أن رسول صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله من استطاع إليه سبيلا فقيل ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة "(16).

قوله تعالى (من استطاع إليه سبيلا)، قال النحويون من استطاع بدل من الناس وهذا بدل البعض من الكل كما تقول ضربت زيدا رأسه وقد روي عن ابن مسعود وابن عمر وأنس وعائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل ما السبيل فقال من وجد الزاد والراحلة(17).

وقال آخرون : السبيل التي إذا استطاعها المرء كان عليه الحج : الطاقة للوصول إليه قالوا : وذلك قد يكون بالمشي وبالركوب وقد يكون مع وجودهما العجز عن الوصول إليه : بامتناع الطريق من العدو الحائل وبقلة الماء وما أشبه ذلك قالوا : فلا بيان في ذلك أبين مما بينه الله عز وجل بأن يكون مستطيعا إليه

---

(12) لسان العرب [جزء 11 - صفحة 410].
(13) تاج العروس [جزء 1 - صفحة 7278].
(14) التحرير والتنوير [جزء 1 - صفحة 791].
(15) تفسير الطبري [جزء 3 - صفحة 357].
(16) الدر المنثور [جزء 2 - صفحة 273].
(17) زاد المسير [جزء 1 - صفحة 428].

السبيل وذلك : الوصول إليه بغير مانع ولا حائل بينه وبينه وذلك قد يكون بالمشي وحده وإن أعوزه المركب وقد يكون بالمركب وغير ذلك. وذكر أهل العلم عن ابن الزبير قوله : { ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا } قال : على قدر القوة(18). وقال آخرون : السبيل إلى ذلك الصحة، وذكر من قال ذلك مثل عكرمة مولى ابن عباس فهو يقول في هذه الآية : { ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا } قال : السبيل الصحة(19).

وبين آخرون المعنى كابن زيد قال : من وجد قوة في النفقة والجسد والحملان قال : وإن كان في جسده ما لا يستطيع الحج فليس عليه الحج وإن كان له قوة في مال كما إذا كان صحيح الجسد ولا يجد مالا ولا قوة يقولون : لا يكلف أن يمشي(20).

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال بقول ابن الزبير و عطاء : إن ذلك على قدر الطاقة لأن السبيل في كلام العرب : الطريق فمن كان واجدا طريقا إلى الحج لا مانع له منه من زمانة أو عجز أو عدو أو قلة ماء في طريقه أو زاد أو ضعف عن المشي فعليه فرض الحج لا يجزيه إلا أداؤه فإن لم يكن واجدا سبيلا -. وهذا يعني : إن لم يكن مطيقا الحج بتعذر بعض هذه المعاني - فهو ممن لا يجد إليه طريقا ولا يستطيعه لأن الاستطاعة إلى ذلك هو القدرة عليه ومن كان عاجزا عنه ببعض الأسباب التي ذكرنا أو بغير ذلك فهو غير مطيق ولا مستطيع إليه السبيل(21).

واختلف القرأة في قراءة الحج، فقرأ ذلك جماعة من قرأة أهل المدينة والعراق بالكسر : { ولله على الناس حج البيت }، وقرأ ذلك جماعة أخر منهم بالفتح : ولله على الناس حج البيت، وهما لغتان معروفتان للعرب فالكسر لغة أهل نجد والفتح لغة أهل العالية. إن القراءتين من قراءة أهل الإسلام ولا اختلاف بينهما في معنى ولا غيره - فهما قراءتان قد جاءتا مجيء الحجة فبأي القراءتين -بكسر الحاء من الحج أو فتحها - قرأ القارئ فمصيب الصواب في قراءته(22).

وأما { من } التي مع قوله : { من استطاع } فإنه في موضع خفض على الإبدال من { الناس } لأن معنى الكلام : ولله على من استطاع من الناس سبيلا إلى حج البيت حجه فلما تقدم ذكر { الناس } قبل { من } بين بقوله : { من استطاع إليه سبيلا } الذي عليه فرض ذلك منهم لأن فرض ذلك على بعض

---

(18) تفسير الطبري [جزء 3 - صفحة 357].
(19) تفسير الطبري [جزء 3 - صفحة 357].
(20) تفسير الطبري [جزء 3 - صفحة 357].
(21) تفسير الطبري [جزء 3 - صفحة 357].
(22) تفسير الطبري [جزء 3 - صفحة 358].

الناس دون جميعهم. قال أبو جعفر : يعني بذلك جل ثناؤه : ومن جحد ما ألزمه الله من فرض حج بيته فأنكره وكفر به فإن الله غني عنه وعن حجه وعمله وعن سائر خلقه من الجن والإنس(23).

وقوله تعالى: (ومن كفر)، فيه خمسة أقوال أحدها أن معناه من كفر بالحج فاعتقده غير واجب رواه مقسم عن ابن عباس وابن جريج عن مجاهد وبه قال الحسن(24).

جاء عن الضحاك في قوله : { ومن كفر فإن الله غني عن العالمين } قالا : من جحد الحج وكفر به. وعن مجاهد في قوله : { ومن كفر فإن الله غني عن العالمين } قال : من كفر بالحج كفر بالله. وقال آخرون : معنى ذلك : أن لا يكون معتقدا في حجه أن له الأجر عليه ولا أن عليه بتركه إثما ولا عقوبة. وعن ابن عباس : { ومن كفر فإن الله غني عن العالمين } يقول : من كفر بالحج فلم ير حجه برا ولا تركه مأثما، وقال آخرون : معنى ذلك : ومن كفر بالله واليوم الآخر. وقال آخرون : معنى ذلك : ومن كفر بهذه الآيات التي في مقام إبراهيم. وقال آخرون مثل عطاء بن أبي رباح في قوله : { ومن كفر فإن الله غني عن العالمين } قال : من كفر بالبيت، وقال آخرون : كفره به تركه إياه حتى يموت(25).

وذكر ابن كثير في تفسيره حديث عن علي رضي الله عنه قال : [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ملك زادا وراحلة ولم يحج بيت الله فلا يضره مات يهوديا أو نصرانيا ذلك بأن الله قال : { ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين }] ورواه ابن جرير من حديث مسلم(26) .

قال صاحب الكشاف: أنه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلا وفيه ضربان من التأكيد : أحدهما أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له والثاني أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال إيراد له في صورتين مختلفتين . ومنها قوله : " ومن كفر " مكان ومن لم يحج تغليظا على تارك الحج ؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا " ونحوه من التغليظ "(27)

قال أبو جعفر : وأولى التأويلات بالصواب في ذلك قول من قال : معنى { ومن كفر } ومن جحد فرض ذلك وأنكر وجوبه فإن الله غني عنه وعن حجه وعن العالمين جميعا. وسبب ذلك لأن قوله : {

(23) تفسير الطبري [جزء 3 - صفحة 358].
(24) زاد المسير [جزء 1 - صفحة 428].
(25) تفسير الطبري [جزء 3 - صفحة 358].
(26) تفسير ابن كثير [جزء 1 - صفحة 508].
(27) الكشاف [جزء 1 - صفحة 195].

ومن كفر } بعقب قوله : { ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا } بأن يكون خبرا عن الكفار بالحج أحق منه بأن يكون خبرا عن غيره مع أن الكافر بفرض الحج على من فرضه الله عليه بالله كافر وأن الكفر أصله الجحود ومن كان له جاحدا ولفرضه منكرا فلا شك إن حج لم يرج بحجه برا لان تركه فلم يحج لم يره مأثما فهذه التأويلات وإن اختلفت العبارات بها فمتقاربات المعاني(28)..

محاور الاستطاعة

وبناء على ما تقدم فإن العلماء قسموا الاستطاعة إلى ثلاثة أقسام :

1. مادية: تتعلق بالإمكانية المادية للفرد الحاج من جهة وكذلك للقائمين على الحج وخدمة المشاعر من جهة ثانية.
2. بدنية: تتعلق بالإمكانية الصحية والجسدية للفرد الحاج. وهذا القسم ينفرد به الحاج لوحده.
3. أمنية: تتعلق بموانع السفر للحاج من النواحي الأمنية خوفاً من الطريق أو بسبب نازلة ما أو بسبب عارض يحول بينه وبين الوصول للبيت الحرام. وهذا القسم كذلك يتشارك به الحاج من جهة والقائمين على البيت وإمكانية توفيرهم الأمن في المشاعر من جهة ثانية.

وعليه يمكن القول أن محاور الاستطاعة تكمن في :

- ❖ المحور الأول: الحاج، وعليه تنطبق الأقسام الثلاث آنفة الذكر.
- ❖ المحور الثاني: القائمين على خدمة المشاعر والحجيج معاً، وتنطبق على هذا القسم قسمين من الأقسام الثلاثة، المادية بتوفير إمكانات الحج والقيام عليه وتوفير مستلزمات القيام به على أتم وجه وما يبنى على ذلك من تكاليف مادية. وكذلك الأمنية ووجوب توفير الأمن للمشاعر كي يتسنى القيام بالحج على أتم وجه دون أي نوع من المخاوف.

وقد أوجز النبي عليه الصلاة والسلام الأمر بحديث مهم يرويه مسلم، فعن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا)، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟، فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم)، ثم قال: (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)(29).

(28) تفسير الطبري [جزء 3 - صفحة 358].

(29) صحيح مسلم [جزء 2 - صفحة 975، رقم 1337].

والحديث يبين أن الاستطاعة هنا تكمن في أبعاد ثلاث متداخلة متعاضدة متآصرة لمحوري الاستطاعة آنفة الذكر: إنساني – مكاني- زماني.

فأما الإنساني فهي قابلية البشر على السفر كل سنة وما يتبعه من جهد وتحضير وإمكانات مادية وجسدية والتزامات اجتماعية وغير ذلك، وأما المكاني فهي نظرته عليه الصلاة والسلام لبعد المسافات على الكثير من أبناء أمته حال الحديث وفي مستقبل الأيام، وأما الزمني فهو يتعلق بأن الأمة ستكبر ويعظم شأنها ويكثر أتباع الدين عبر الزمن ليصل لملايين كثيرة وبالتالي يستحيل استيعابهم جميعاً في مكان واحد لزمن محدود وفي هذا تسهيل للامة وتيسير لها لأننا لو تخيلنا أن الأمر جاء بالحج كل عام فكيف يمكن أن يتم ذلك لكل الناس في وقت واحد وفي مكان لا يتسع لهم، بل إن هذا بالتأكيد سيكون خارجاً عن الطاقة والاستطاعة مما سيدفع بالكثير لعدم الامتثال.

ولئن كان الله تعالى قد تعهد بحفظ دينه وكتابه : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:9)، فإنه جل وعلا تعهد كذلك بحفظ بيته من كوارث ونوازل أصابت وتصيب الأمم من حوله. قال تعالى: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (البقرة:125)، وقال جل وعلا: (.. أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) (القصص: من الآية57)، وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ) (العنكبوت:67).

ولعل التاريخ يبرهن لنا ذلك فلم يصب البيت الحرام من نوازل الدهر وكوارث الطبيعة وحروب بني البشر الا النزر اليسير مقارنة بما حصل ويحصل حوله. ولعل أبرز ما حصل بعد البعثة الشريفة كانت حوادث الفتنة بعد العصر الراشدي وثورة ابن الزبير رضي الله عنهما، ومن ثم حادثة القرامطة وسرقة الحجر الأسود ونقله إلى الأحساء وقتل الحُجاج في سنة 319هـ[30]، ومؤخراً حادثة زعم ظهور المهدي في نهايات القرن الرابع عشر الهجري، وبين تلك الأحداث أحداث صغيرة أخرى.

أما عن الكوارث فكانت لا تذكر سوى بعض أحداث الزلازل القليلة غير المؤثرة وكذلك السيول بسبب الأمطار الكثيفة في بعض المواسم ولأن البيت الحرام محاط بجبال شديدة الانحدار تحيط به كالمعصم تمنعه من الأعداء من جهة لكنها تقسو عليه بسيول الماء القوية من جهة أخرى.

(30) الملل والنحل 92/2، شفاء الغرام 193/1، تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً ص 43.

كل تلك الأحداث تكاد لا تذكر أمام التباعد الزمني بينها من جهة وقلة أثرها من جهة ثانية وضآلة نوعها وكمها بالمقارنة مع الأحداث الهائلة في أمم الأرض من جهة ثالثة.

وبذلك يتحقق الحفظ الإلهي للبيت وحجاجه الذي يتوزع بين ثلاثة انماط:

1. الحفظ الطبيعي المتمثل بمكان البيت جغرافياً وطوبوغرافياً وبيئياً وجيولوجياً.
2. الحفظ الروحي المتمثل بمكانة البيت في قلوب الناس وعقولهم.
3. الحفظ التأريخي وهو يتمثل بتهيئة الله تعالى لمن يقوم على خدمته وحفظ أمنه ويتفانى في ذلك رغم اختلاف المناهج والتوجهات الفكرية والمذهبية عبر التأريخ. فمنذ عصور الخلافة الراشدة، الأموية، العباسية بطوريها الأول والثاني، مروراً بالفترة العثمانية ووصولاً للفترة السعودية فإننا نجد أن أمر القيام على خدمة البيت وحجاجه كانت مقصد الجميع دون استثناء مع تميز فترة عن فترة بسبب عوامل مادية وأخرى سياسية إقليمة ودولية.

كما إن الله تعالى قد كفل سقيا الحجاج وسط بيئة صحراوية جافة عبر عين ماء زلال رقراق من أجود وأنقى أنواع المياه على الأرض لا تنضب حتى قيام الساعة ألا وهي ماء زمزم. كما ضمن عدم اضطراب المناخ والأجواء في تلك المناطق باختلاف المواسم والفصول فتكون الحرارة طيلة السنة متقاربة في درجاتها تميل للحرارة العالية مع زيادة قليلة في أشهر الصيف.

كل ذلك يحقق ما يعرف بمنظومة حفظ أمكنة المشاعر من أمن وتيسير سكن وطعام وشراب ودواء وعلاج وغير ذلك فضلاً عن التبضع والتجارة ومنافع أخرى كثيرة عنتها الآية المباركة: (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) (الحج:28).

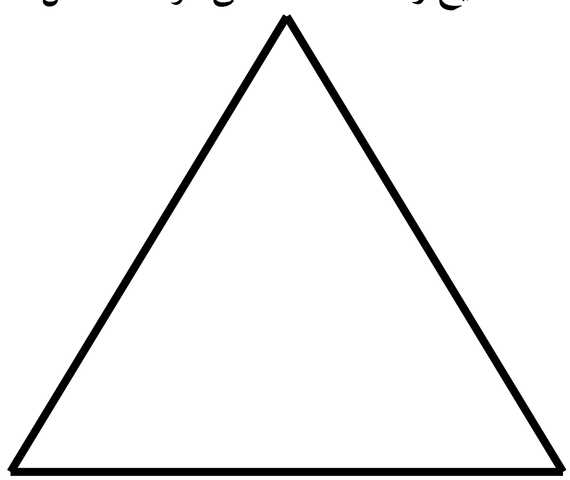
العلاقة الثلاثية الحجيج ⇔ المشاعر ⇔ القائمين على الحج

من هنا تتداخل أضلاع ورؤوس العلاقة الثلاثية المشكلة لترنيمة الحج الرائعة:

الحجيج وأداء المناسك على الوجه الأكمل ⇔ المناسك والمشاعر أمكنة وأمناً وقوامة ⇔ القائمين على الحجيج والمشاعر والمناسك.

وبالنظر لتلك التركيبة الثلاثية التي تشكل منظومة الحج نجد أن أطرافها جميعاً مرتبطة ارتباطاً عضوياً على مدار الزمن لكن طرفين منهما مرتبطان ارتباطاً موقعياً حركياً هما القائمين على الحج والمواقع والآثار المرتبطة بالمناسك والمشاعر أمكنة وأمناً وقوامة، لأن هذين الطرفين يربطهما رابط عروي وثيق متمثل بتوفير الأمن والسكينة وأمكنة المبيت والطعام والشراب والعلماء والخدام والوسائط الناقلة وغير ذلك بينما

يكون المغزى من هذين الطرفين هو خدمة الحاج وتسهيل حجه وصولاً للحج المبرور الذي يؤدي إلى مرضاة الله والجنة كما هو مثبت في السنة الصحيحة. فكأن طرفي المثلث اللذان يشكلان قاعدته يقومان في خدمة الطرف الثالث الذي يشكل قمة المثلث أو هدفه الأسمى الذي هو الحاج تحقيقاً لمبدأ الاستطاعة التي تفضي للقبول وتحقيق ما يصبو له الحاج من رحلته المباركة.



تلك العلاقة التي تحكمها جودة الأداء للقائمين على الحج من أجل تجسيد منظومة الحفظ الإلهي للبيت وجميع أمكنة المشاعر وتوفير الأجواء المناسبة للحاج لأداء الفريضة والنافلة على الوجه الأكمل.

ومن ناحية ثانية فإن الحاج وهو يتمتع بكل تلك التسهيلات عبر منظومة حفظ إلهي متكاملة للبيت العتيق فإن عليه بالمقابل أن يكون مؤهلاً لأن يحمل شرف الوفادة على الله تعالى في أطهر مكان وأشرف رحلة فيؤدي ما عليه من مناسك عرفها له الحبيب عليه الصلاة والسلام بهدوء وتؤدة دون رفث ولا فسوق ولاجدال من جهة ويحافظ على قدسية المكان من جهة ثانية ويكون سفيراً للإسلام أمام الأمم الأخرى من جهة ثالثة. قال تعالى:

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (الحج:29).. وقال جل وعلا: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ

وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) (البقرة:197).

دور محاور الاستطاعة ورسالة الحج في التحفيز الذاتي للدعوة لله تعالى

هنا يدخل دور مهم لمحوري الاستطاعة في إبراز الحرص والتحفيز الذاتي من أجل ضمان استمرارية ودوام ترنيمة الحج الربانية كل عام وفق رقراقية وانسيابية تبرز عظمة هذا الدين وانسجام أركانه وترتيب تشريعاته زمنياً ومكانياً وإنسانياً ليشكل ظاهرة كونية – بشرية بحفظ إلهي يدعو الناس لتدبر عظمة شرع الله وفق انضباط وتوزيع أدوار بين البشر حجاجاً وقائمين والبيئة مكاناً ومشاعر وجغرافية وطوبوغرافية وكأنه الموج الرقراق الذي لا تتميز جزيئاته وذراته وكأننا في ترنيمات تسبيحية للجبال والهضاب والرمال والصخور والحجارة تسبح مع البشر مدوية بصوت واحد: (لبيك اللهم لبيك–لبيك لا شريك لك لبيك– إن الحمد والنعمة لك والملك– لا شريك لك)، تماماً كما هي حال سيدنا داود عليه السلام وترنيماته مع مخلوقات الله وهي تسبح معه وتردد: (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) (الانبياء: من الآية79)، (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) (صّ:18).

والتحفيز الذاتي يقصد به تلك القوة الخفية التي تدفع الناس للتنافس للذهاب للحج وأداء المناسك مرة أو مرات حسب قدراتهم المتفاوتة رغم ما يعانوه من وعثاء السفر وبعده وطول مسيره كما كان الحال سابقاً وإن تحسن بعد تطور التقنيات الناقلة والمواصلات براً وجواً وبحراً. ونفس تلك القوة الخفية جمعت وتجمع قلوب القائمين على بيت الله تعالى عبر التاريخ دون استثناء وتسخير جهودهم لخدمة البيت الحرام وإن بنسب متفاوتة.

وإن كان من شيء يذكر فإن القيادة السعودية الحكيمة استطاعت أن تسخر جهوداً جبارة في تطوير وتحسين أداء القوامة على الحجيج ومشاعر الحج بشكل لم يسبق له مثيل خصوصاً أنها عاصرت فترة زمنية كانت معها الأمة قد فقدت تلك السطوة والتأثير الدولي والإقليمي فانتشرت الصراعات الدولية والإقليمية بشكل أمواج متلاطمة من الفتن التي يضطرب ويموج بها العالم من حولها، فنجحت تلك القيادة الحكيمة في إبعاد المشاعر المقدسة عن الاضطرابات والأزمات والفتن كي تبقى تلك الترنيمة مستمرة ودائمة، وبالتالي فهي قد فقهت دورها بشكل جيد في منظومة الحفظ الإلهي للبيت وقاصديه.

وقد توزعت تلك الجهود الكبيرة التي تسجل لهذه الحكومة الرشيدة في هذا المجال في النواحي الأمنية والخدمية والدعوية، فترى التوسعات في جميع مرافق الحج ومشاعره قد واكبت التوسع السكاني وازدياد الطلب سنوياً بحيث أصبح عدد الحجيج يشكل هماً كبيراً في كيفية إنجاح تنسيق وترابط خيوط وأواصر تلك الترنيمة. وكذلك تجد الخدمات الدعوية والفقهية والعلمية منتشرة في كل أرجاء المشاعر طيلة فترة

الحج، فضلاً عن خدمات الحجيج في إسكانهم وإطعامهم وتطبيبهم وتوفير الأضاحي لهم وتوزيعها وغير ذلك من التفاصيل[31].

أما بالنسبة للحاج فيكون دور التحفيز الذاتي من جهته في كيفية تأدية الدور المناط به في أداء المشاعر على حسب أوامر الشرع من جهة، وكذلك ما يقع على عاتقه من مسؤولية تمثيل الأمة في هذا الموسم التعبدي ليكون أحد الذرات والجزيئات الداخلة في تشكيلة تلك الترنيمة التسبيحية العظيمة.

قد يكون كل ذلك واضحاً وبيناً لكل ذي لب ولكن ما الجديد الذي يمكننا أن نسخره من محاور الاستطاعة وما تدفع به من تحفيز ذاتي لكي تكون في خدمة الدين والدعوة إلى الله تعالى في زمن يسير في إيصال المعلومة لكل جهات الأرض من جهة وصعب بتداخلاته الفكرية واضطراباته العقائدية وتصارعاته الستراتيجية؟!

محاور الاستطاعة وعصرية الدعوة

عصرية الدعوة هي ذلك النمط الدعوي الذي يتناسب مع العصر الراهن بكل تعقيداته واضطراباته وفتنه التسونامية العاصفة، وهي أسلوب يتبناه الباحث بما يراه مناسباً للتسريع في كسب نسبة أكبر من العالم لهذا الدين وتسريع التعجيل الذاتي للأمة في سلم صعودها ورقيها ونهضتها لتسنم مكانها القيادي بين الأمم كما تستحق.

وهذه الدعوة العصرية تمت هندستها على ركيزتين اثنتين العلم والإعلام، وكل ركيزة لها تفاصيلها ومحاورها وتطبيقاتها ومشاريعها[32].

ولسنا هنا بصدد مناقشة تلك الهندسة الدعوية العصرية لكننا نريد أن نبين تطبيقها على ترنيمة الحج ومحاور الاستطاعة والتحفيز الذاتي المشكلة لتلك الترنيمة.

بينا أن هذه الترنيمة التعبدية التسبيحية الجليلة يمكن تسخيرها لدعوة الناس إلى دين الله لأن جلالها وهيبتها تبعث في نفس الإنسان المراقب لها وإن كان من غير المسلمين كل معاني الإجلال والإكبار بل والهيبة، وليكن الفضول في أسوأ التقديرات، وهو يرى تلك الموجات الجمعية البشرية بلونها الأبيض تدور حول البيت الحرام بكسوته السوداء دوراناً عكس عقارب الساعة تماماً كما تفعل الكواكب حول شمسها الأم أو المجرات حول مراكزها، أو تلك الصفوف المتراصة المنتظمة في الصلاة تقف كتفاً لكتف دون تمييز بين

---

(31) انظر كتاب (تاريخ مكة المكرمة قديماً وحديثاً)، محمد إلياس عبد الغني، صفحات مختلفة.

(32) يصدر للباحث كتاب جديد بعنوان (هندسة الدعوة العصرية) يتناول فيه تفاصيل بناء هذا الصرح الدعوي المعاصر من المنطلقات إلى التطبيقات.. ويمكن الرجوع إلى موقع الباحث على الشبكة المسمى (مشروع عصرية الدعوة): (www.khalid-alubaidy.com).

لون أو جنس أو عرق أو مذهب باتجاه البيت العتيق بإحداثيات دائرية خلابة. ثم تنتقل حواسه ليراقب تلك الموجات البشرية وهي تتدفق بانسيابية عجيبة نحو أداء المناسك الواحدة تلو الأخرى في مشهد ليس له نظير في أي فعل أو نشاط مماثل وفي مكان ضيق وعر وجبال تطبق على الناس لا لتضيق عليهم بل لتحتضنهم وتردد تسبيحاتهم، وفي ترنيمة مترابطة بين البشر والبيئة من أحياء وجماد تتجه بالدعاء نحو الخالق جل في علاه حتى أنه جل وعلا قد حرم صيد الحيوان في تلك المشاعر أو قطف النبات كي لا يحصل أي ثلم لتآصرات وانسيابية تلك الترنيمة الجميلة، قال تعالى: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (المائدة:96). وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (حرم الله مكة فلم تحل لأحد قبلي ولا لأحد بعدي أحلت لي ساعة من نهار لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمعرف) . فقال العباس رضي الله عنه إلا الإذخر لصاغتنا وقبورنا ؟ فقال (إلا الإذخر)، وقال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم لقبورنا وبيوتنا ؟، وقال أبان بن صالح عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة سمعت النبي صلى الله عليه وسلم مثله، وقال مجاهد عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما لقينهم وبيوتهم[33].

هنا يكمن دور محوري الاستطاعة وفعل التحفيز الذاتي في استغلال تناسقات تلك الترنيمة الخلابة من جهة وفضول معرفة غير العارفين بها من جهة أخرى لتأليف القلوب وكسب العقول لصالح الدعوة في زمن تحتاج الأمة فيه لكل أدوات التفعيل من أجل نهضتها وترقيها في سلم العودة لتبوأ ما تستحق من مكانة فضلى في عالم متخبط الأركان ضعيف البنيان خاوي الجنان منخور العقول والأبدان.

ولنكن أكثر دقة وموضوعية وتفصيل في توزيع الأدوار والمهام بين محوري الاستطاعة واستغلال جانب التحفيز الذاتي وتقنيات الدعوة العصرية، فنقول وبالله التوفيق:

1. ماذا لو تمكنا من استغلال هذه المواسم الكريمة وتلك الترنيمة الجليلة وعرضنا بضاعتنا للعالم الآخر – وأقصد به غير المسلمين- بنسق إعلامي عصري يعرض الحج وقصته وتأريخه وأركانه وضوابطه ومشاعره بشكل مشوق إعلامياً وباستخدام متخصصين إعلاميين وفنيين وتقنيين

([33]) صحيح البخاري [جزء 1 - صفحة 452، رقم 1284، وانظر الأحاديث بأرقام 1510، 1736، 1984، 2301، 4059).. قال شراح الحديث كما في الفتح بأرقام الأحاديث: (حرم الله مكة) جعلها حراما يحرم فيها فعل ما سيذكر . (أحلت لي) أبيح لي القتال فيها . (ساعة من نهار) فترة من نهار وهي من ضحوة النهار حتى ما بعد العصر من يوم فيح مكة . (يختلى) يقطع . (خلاها) الرطب من الكلأ الذي ينبت بنفسه . (يعضد) يكسر ويقطع .) ولا ينفر صيدها) لا يزعج من مكانه ولا يحل صيده . (تلتقط) تؤخذ . (لقطتها) ما سقط فيها . (إلا لمعرف) من يعرفها وينادي عليها حتى يجيء صاحبها ولا يأخذها للتمليك . (لصاغتنا) جمع صائغ يستعملونه لحاجتهم في الصياغة (لقينهم) حدادهم يستعمله في إيقاد النار.

غربيين بمشاركة المتخصصين المسلمين ليكون أثر ذلك على المتلقي الغربي أكثر وقعاً وأعظم نفعاً كي يكون اللسان المخاطب به متطابقاً مع لسان الحال اليوم وأسلوب الثقافة المتداول والله تعالى يقول: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (ابراهيم:4)، واللسان هنا يشمل أسلوب الدعوة في كل زمان ومكان، ألا وهما لسان الحال والمقال معاً، فكما تبين لنا قصص القرآن الكريم أن أغلب الناس آمنوا بأنبيائهم ليس بلسان المقال بل بلسان حال ثقافة عصرهم فأعطي الأنبياء معجزات تلائم ثقافة عصرهم، واليوم نحن نمتلك تلك الآلية أو ذلك اللسان الإعلامي المؤثر في النفوس بشكل كبير خصوصاً لو أحسن استغلاله وتوظيفه لصالح قضية الدعوة. وهذا الأسلوب سيكون له تأثير كبير لصالح قضية الدعوة وكسب الآخر من جهة وكذلك لصالح قضية منع التعدي والإساءة إلى الرموز الدينية الإسلامية من جهة أخرى خصوصاً لو أنتج وأخرج بأسلوب عصري وتمكنا من عرضه على قنوات غربية وشرقية مؤثرة وبلغات شتى.

2. يمكن كذلك طبع منشورات صغيرة ملونة جذابة عن مكة المكرمة والمشاعر وقصة الحج بلغات شتى وتوزيعها على الحجاج العائدون لبلدانهم خصوصاً من تلك الأمصار التي يكثر فيها غير المسلمون فلو استطاع كل حاج أن يؤثر في شخص واحد من حوله لكم أن تتخيلوا الأثر بعد سنوات ليست بالكثيرة. كذلك يمكن استغلال أسلوب الأشرطة المرئية لتوزيعها على الحجاج لنفس الغرض وربما يكون هذا الأسلوب أكثر وقعاً بسبب حب العامة للحركة والمشهد المرئي الحركي أكثر من القراءة والاطلاع خصوصاً لو تم إنتاج تلك الأشرطة بأسلوب درامي حركي إعلامي عصري وبلغات مختلفة.
3. كذلك يمكن اتباع أسلوب شراء ساعات عرض معينة على فضائيات غربية وشرقية مؤثرة لغرض تعريف الناس بموسم الحج والمنافع التي تجنى منه في الدنيا والآخرة، مع تبيان تفاصيل الحج وقصته ومشاعره وتاريخه ومكانته عند جميع الأنبياء والرسل خصوصاً لو استخدمنا مقدمين ومذيعين ودعاة من نفس تلك الأمصار والبلدان ليخاطبوا الناس بثقافاتهم وليس بثقافة غريبة عليهم قد لا يستسيغونها.
4. تأليف كتب وموسوعات تأريخية تتكلم بلغات القوم وثقافاتهم وذلك باستقطاب كبار المفكرين والمؤلفين من مختلف الثقافات والتواصل معهم وتشكيل فرق بحثية تعضدهم لتأليف تلك المؤلفات الموسوعية الخاصة بمكة المكرمة والمدينة المنورة، تاريخهما، موقعهما، أهميتهما، وقدسيتهما، وكذلك موسم الحج وما يتعلق به لتكون تلك المطبوعات البحثية رصيداً ثقافياً يتعرف من خلاله

الطرف الآخر على جمال ثقافتنا ووسطية معتقداتنا وانضباط تشريعاتنا وعلمية ديننا ومنهجية تفكيرنا.

5. إقامة معارض ومهرجانات عالمية في كل دول العالم تعرض على الناس الحج وحقيقته وتاريخه وضوابطه ليجتمع الناس من كل دين وعرق ويستمعوا لتلك الترنيمة الخالدة ويعلموا عظمة هذا الدين وخيره الذي جاء به للناس أجمعين.
6. ويمكن كذلك استنباط أفكار كثيرة أخرى مشابهة تدخل ضمن ركني هندسة الدعوة العصرية العلم والإعلام.

وبذلك نكون قد سخرنا أثر ذلك التحفيز الذاتي لطرفي أو محوري الاستطاعة في خدمة ديننا وقضية أمتنا ونهضتها المرجوة من جهة، وكذلك أعطينا حق الطرف الآخر بأنه جاهل لا يعلم حقيقة الإسلام بسبب التشوهات المتعمدة التي يقوم بها من لا يريد لهذا الدين الخير ولهذا الأمة النهوض، وذلك إسقاطاً لعلة الجهل من جهة ثانية وفقاً لما أمر به الله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ) (التوبة:6). ومن جهة ثالثة إسقاطاً لتهمة التصقت بنا في إعلامهم المغرض بسبب فعل بعض الجهلة أو المغرر بهم من أبناء الأمة عملاً بأوامر الله تعالى بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل:125)، وكذلك باجتناب الأساليب المتشجنة التي قد تفضي لجلب مفسدة ودرء منفعة: (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام:108).

الله تعالى أسأل أن يهدينا جميعاً كي نستجمع كل قوانا الذاتية والمؤسسية والرسمية لخدمة قضايا ديننا وحقوق أمتنا، وعذراً أن أسأنا فلم نرد إلا الإسصلاح ما استطعنا والله تعالى مولانا وهو أعلم بالحال والمآل وهو من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من بعث رحمة للعالمين وآله وصحبه والتابعين أجمعين خير البرية من بعد رسل الله للعالمين.